# أميرة عربية !!!

## قصة مصرية : من مذكرات مسروقة ...

### للأستاذ عبد الله حبيب

كان الشيخ عبد الحميد ... طالبا فى معهد الاسكندرية الدينى، وكان مرموقا بين رفاقه بالتجلة والاحترام، لأنه كان يتفرد — مع أفراد قلائل — بين الطلاب بمظاهر الغنى والجاه .

وكان أبوه أشهر تجار النحاس فى الوجه البحرى ، جم الثراء ، وافر الربح ، سخى اليد لا يرد سائلا ، ولا يدخر مالا .

وكان ابنه الشيخ عبد الحميد ... على غراره أريحية وكرما ، وكان حبيبا الى نفوس الطلاب والشيوخ. يرفل بينهم فيما وهبه الله من نعمة وجاه ، وكان الى ذلك ريان الشباب ، مستوى العود ، جميل الوجه ، ذكى الفؤاد ، متوقد الذهن ، فاجتمع له بهذه الصفات كل مايحببه الى النفوس ويأخذ بيده الى ما يشتهى من مجد ونجاح .

ثم تعاقبت الأيام ، وكثرت الأعوام، فاذا الحرب العالمية الاولى يندلع لهيبها فى الأرجاء، وإذا الأحكام العرفية تفرض على البلاد، وإذا والد الشيخ عبد الحميد يلقى جوار ربه دون أن يدع لبنيه من ثروته الطائلة الا صبابة ضئيلة لا تفى بحاجاتهم ولا تحفظ عليهم مكانتهم بين الاهل والاصدقاء .

وامتدت يد الأحكام العرفية الى الشيخ عبد الحميد كما امتدت الى كثير من المصريين بالنفى والاعتقال ، فكان أحد المنفيين فى مالطة ، فظل بها أربعة أعوام .

ولما عاد الى مصر من منفاه كان رفاقه فى الدرس قد خلفوه وراءهم ونالوا درجاتهم العالية وظفروا بحظهم من الوظائف .

وكانت الثورة المصرية قد تنادى بها الزعماء وحمل لواءها الطلاب ، فخاض الشيخ عبد الحميد غمارها ، وكان أحد خطبائها الأفذاذ . وجنحت به الثورة عن مواصلة الدرس ، وغمره طوفان الوطنية فكان أحد ضحاياها أولا وأخيرا .

وفازت ثائرة البلاد ، ونال أكثر المجاهدين نصيبهم من نعيم الحياة ورخاء العيش ، إلا صاحبنا — مع نفر قليل — فقد تلفت حوله فلم يجد له من مغانم الوطنية نصيبا .

وحسب المسكين أن معرفة الزعماء له وبعد صوته فى الخطابة وذيوع اسمه فى الثورة المصرية يكفل له النجاح إذا هو عمل فى الصحافة . لكنه منى بالخيبة فى هذه كما منى بها فى تلك . وظل الى اليوم يغالب الأيام وتغالبه ، ويتعلق بالآمال كما تتعلق الدمعة الحائرة فى جفن الساهد الحزين .

وعرفت الشيخ عبد الحميد فى دنياه المدبرة فأنست بمعرفته وارتحت لمجالسته ونعمت بحديثه العذب الفياض .

وهو الآن أحد أفراد قلائل ممن ألموا بتاريخ الثورة المصرية وأسرارها وخفاياها ، ويكاد ينفرد فى هذا العهد بمعرفة شاملة لتاريخ الأسر المصرية .

قلت له ذات مرة : ألم تعن بكتابة مذكرات عن حياتك الحافلة بشتى الوقائع والذكريات ؟ فأجاب : لم أدع شاردة ولا واردة من حياتى إلا قيدتها فى حينها ، وإنى لأرجع اليها الان فأجد فيها سلوة وعزاء . لقد كانت حياة قصيرة ، ولكنها كانت عريضة الأفق متعددة الجوانب ذاخرة بالأحداث .

قال ذلك — وكنت فى منزله — ثم نهض إلى غرفة أخرى فعاد يحمل بعض هذه المذكرات ، وتناولتها بالقراءة العابرة فرأيت بين أجزائها طرفا وغرائب جديرة بأن تكون متاعا للقراء . ووقع بصرى على جانب يمثل حياته الغرامية ، وراقنى طرافة هذا الجانب من حياته فسألته : أليس من الخير أن تقوم بنشر هذه المذكرات ؟ فقال : لقد ضننت بها على النشر حتى أيام كنت أعمل فى الصحافة فكيف بى أبيح نشرها اليوم بعد أن جافيت صناعة القلم وآويت إلى عزلتى .

ولست أدرى لماذا عولت فى هذه اللحظة على سرقتها . أجل تماكنى هذه الرغبة ... فلم أبرح منزله حتى ظفرت بها ...

والآن فسيجد الصديق هذا الجانب من حياة قلبه وهواه قصة بين أيدى القراء ، وسيعرف أنى أنا السارق الذى لم يرع حرمة الأسرار . وفى سبيل القلم وصناعته ماسألق من غضب الصديق وعتبه .

وتلك هى المذكرات المسروقة ... ...

* * *

( ... مارس سنة ... )

ما أجمل الربيع فى ثغر الاسكندرية وما أروع أصائله وأمسياته على شاطئ البحر ، إننى أحس فى هذه الأيام كأننى أصبحت عاشقا ، أرجو أن يكون هذا الإحساس وهما من أوهام الربيع . يقولون إن القلوب تتفتح للحب فى الربيع كما تتفتح الورود ، فهل تفتح قلبى لحب هذه الـ ... ... هذه الأميرة ، أجل هذه الأميرة العربية التى يفرّ من سطوة جمالها سراة الثغر ووجوهه ، وماذا يخيفنى من هواها ولست أغنى منهما ما يبغى المدلهون . إننى أعرف مكانى فى هذه الدنيا ، فلست أحمل نفسى عناء الآمال الكذاب ، سأقنع من هواها بالنظرة الخاطفة ، وستكون هذه النظرات زادا لقلبى ...

* * *

( ... مارس سنة ... )

اليوم جاز بى الهوى مقداره  فى أهله وعرفت أنى عاشق

ولا سبيل الى النجاة من هول ماجرى اليه قلبى ، فلتكن مشيئة الحب وليرحم الله المحبين رباه ؟ ؟ هذه أميرة عربية فاتنة ، وهى — كما حدثونى — وفدت الى مصر من بلادها النائية لتشهد معالمها وآثارها ، وها أنذا أراها بعينى تنزل فى أفخم فنادق الثغر وتحتل منه جناحا خاصا ، وتلك آثار الغنى الطائل والنعمة الوفيرة تبدو للعيان فى كل مظاهرها ، وهذه ثيابها العربية التى تحرص على لبسها تم عن تمسكها بعادات قومها ، فكيف توسوس لى نفسى بالدنو منها والتعرف اليها ؟

لقد كنت أريد أن أقنع بالنظر اليها بعيدا عن قدس مجلسها ، فما بالى اليوم أتعلق بكاذب الامال فيؤرقنى هم التفكير فى وسيلة أتقرب بها اليها .

ذلك هو جنون الحب ، وتلك هى سماته . أليس من الجنون أن يخفق قلبى بحب هذه الأميرة التى غزت قلوب العتاة من أبناء الثغر ورواده الأثرياء . ومن أكون بين هؤلاء وهؤلاء بعد أن ذبل الشباب ، وخلا الوطاب .

رباه !!

هل أنت مسعد من ضاقت به الحال  فتى تغـرب لا أهـل ولا مال

* * *

( ... أبريل سنة ... )

اليوم ما أسعدنى بهواى ، لقد تجرعت شهر كامل لقيت فيه من الوجد والحرمان ما يذيب قلب الجماد . أما اليوم فما أسعدنى بهوى الاميرة الفاتنة ...

من كان يصدق أن أظفر — أنا الذى يعوزنى ثمن قدح من الشاى فى بهو الفندق الكبير الذى تنزله الأميرة — بابتسامتها الساحرة . ومن كان يظن أن أرى بعينى إقبالها على المائدة القريبة منى وانصرافها عن بقية الموائد ، وحولها شباب الثغر والصفوة المختارة من أغنيائه ، لست واهما فى فهم ما فهمت . لقد أقبلت اليوم نحوى وظلت تتفرس فى وجهى طويلا ، أليس من الجائز أن تكون ثيابى العربية وعمامتى الأنيقة سبب إقبالها على وتطلعها الى . ليكن هذا أو سواه ، فقد ظفرت منها بما لم يظفر به أحد .

سأعود الى الفندق غدا ، وسأدنو من مجلسها فأحييها وليكن ما يكون .

* * *

( ... أبريل سنة ... )

ويلى ، ثم ويلى ، كيف جسرت على ما أقدمت عليه اليوم ؟ ...

هذا الوجه الفاتن الساحر ، وتلك التقاسيم العربيـة الوضاءة ، وهذه الأناقة فى ثيابها البدوية الموشاة الطريفة ، وذلك الجسم الريان المتود . كل هـذا أو بعض هذا أما كان يكفى لأن تتولانى بسببه الرهبة أو يعقد لسانى الخوف ؟ ؟

لقد أقبلت اليوم تتهادى نحو مائدتها المختارة فى بهو الفندق، ورنت الى فى إيماءة لماحة خاطفة ، إى والله رنت الى الأميرة التى افتتن بها كل من رآها ، والتى ظفرت أنا وحدى باعجابها ورضاها ، ما أعجب تصاريف القلوب !!! وما اروع هـذه المفارقة المباغتة التى خفق لها قلبى واضطرمت بها جوانحى .

لمت أطراف شجاعتى ، وأقدمت نحو مائدتها فلم تتذكر لهذه الجرأة النادرة ، ووقفت أمامها ثم حاولت أن أنطق بكلمة فانعقد لسانى وجف حلقى واحتبست الكلمات فى فمى ، ورأت الأميرة ذلك — وكان رواد الفندق قد تطلعوا نحـوى — فأعانتنى بإيماءة رقيقة ثم أشارت الى مقعد على مائدتها فارتميت عليه كمن يخشى السقوط . وكان لا بد أن أتكلم ففتح الله على بكلمات قصار .. قلت لها فى رجفة : إننى أيتها الأميرة شاب مصرى عربى الأصل ، وقد رأيتك لأول مرة فى هذا الفندق فتساءلت عنك ، فقيل لى مرة إنك أميرة اسبانية تحرصين على زى أجدادك العربى القديم ، وإنك وفدت الى مصر لمشاهدة آثارها والتمتع بشمسها وهوائها ، وقيـل لى مرة أخرى إنك أميرة عربية من " بين البحرين " جئت الى مصر فى غير حاشية أو دعاية طلبا للراحة فى بلادنا .

قلت ذلك فى جهد ومشقة ، وحاولت الرجة كل قواى فلم أقو بعد هذه الكلمات على إتمام ما أريد ، فلزمت الصمت مطرقا ، وكأنها أشفقت على من هذه الحال ، فافتر ثغرها عن ابتسامة مشرقة ثم قالت فى لهجة عربية فصيحة :

— وهل حيرك هذا الأمر فلم تهتد لأصلى ولم تعرف على التحقيق إن كنت اسبانية من أصل عربى أو عربية صميمة من " بين البحرين " ؟ ...

وكنت قد قويت على الكلام فقلت :

— كلا ، لم تكن هذه المسألة سبب حيرتى . ولكنى كنت أريد أن أقول بعـد ذلك إننى أراك هنا وحدك بغير رفيق أو أنيس ، فعجبت لهذه الوحدة الموحشة وقلت فى نفسى هل ... هل ...

— قالت فى نفسك هل تقبلنى الأميرة لأكون لهـا ذلك الرفيق المؤانس أليس كذلك .

أدركتنى رحمتها فتولت إعنى إتمام ما كنت أريد أن أقوله فاطمأنت نفسى لحديثها وقلت :

— أجل أيتها الأميرة ، ذلك ما كنت أبغى أن أقول :

قلت هذه الكلمة فـا راعنى إلا أن أغرقت فى صمت وتأمل ، ثم رفعت إلى وجهها وظلت تحدجنى بنظراتها الفاحصة حتى أطرقت خجلا ، ولزمت الصمت كما لزمته ، وبقينا على هذه الحال ما شاء الله أن نبقى — وكأنها رأت بعد هـذا الصمت الغامض أن تذهب وحشـة نفسى فراحت تسألنى عن آثار مصر وإقبال السائحين عليهـا ، وتشعب الحديث فى شئون شتى كلها فى نظرى تافهة لأنها لا تعنينى ، ثم نهضت شـدت إلى يدها فى وقار ولطف وسلمت منصرفة الى جناحها فى الفندق ، ومضيت تشيعنى نظرات الجالسين ، وكنت فى هذه اللحظة شارد اللب أفكر فى شأنى مع هذه الاميرة التى أصبحت همى وشاغلى

( ... أبريل سنة ... ) .

لك الله ياقلبي ، فقد طمعت فى غير مطمع ، وتعلقت بالأوهام فى حب هذه الأميرة ها أنذا أراها اليوم قد تغير حالها ، لم تعد "وحيدة" كما كنت أراها ، لقد أختلف إلى جناحها فى الفندق عظماء المدينة فاصبحت تلقاهم فى بشاشة وهشاشة .

بالأمس رأيتها على شاطئ البحر فى سيارة أحد أبناء العظماء الوارثين ، ورأيته الى جوارها يدل ، وسمو مقام الجالسة الى يمينه .

لقد كانت رائعة فى جلستها ، وحانت منى اليها التفاتة فإذا هى ترمقنى بنظرة غامضة أعرف كنهها .

إن هذه الأميرة تحيط بها أسرار لا قبل لى بكشف خفاياها ، لقد أصبحت سيرتها فى أفواه أهل المدينة ، وذاعت حول اسمها الاقاويل ... قالوا إنها عابثة لاهية ، وقالوا إنها تنصب شباكها لذوى الغنى واليسار فتظفر منهم بالمال الوفير والهدايا الغالية ... قالوا وقالوا وما أشقانى بما قالوا .

غدا سأذهب لزيارتها ، وغدا ساكاشفها بحبى ... أجل ساكاشفها بحبى أنا الفقير المسكين ، وساكشف بذلك بعض أسرارها أو ليكن مايكون .

* * *

( ... أبريل سنة ... ) .

لقيتها اليوم واجمة ساهمة تفكر وتطيل الصمت والإطراق ، كأنها قدبرمت بالدنيا وزخرفها ، وكأنها قد سئمت عيشها الوارف الظليل فراحت تفكر فى الفرار من دنياها الصاخبة .

قلت لها :

— ما بالك اليوم كأن بك هما دفينا .

فأجابت فى صوت متهدج :

— بل هموما تضيق بها نفسى .

قلت :

لقد جئت اليوم وعلى لسانى كلمة جريئة كنت أريد أن أغامر بها فألقيها بين يديك . لكنى الآن أحجم عنها فلست أريد أن ألقيها إلا فى وقت تكون نفسك فيه منطلقة من هذا الأسار .

فأجابت مسرعة :

— بل قل الآن ، فمن يدرى ، لعلى أجد فى كلمتك هذه عزاء لنفسى .

عندئذ انفرط لسانى بهذه الكلمة التى كنت أخشاها فقلت لها فى جرأة وبساطة :

إنى أحببتك منذ رأيتك ، وكنت ولا أزال أعد هذا الشعور فى نفسى ضربا من الجنون ، فماذا تقولين فى شأن هذا الفقير الذى يجرؤ على أن يصارحك الهوى وهو يعرف كيف وضعته الأقدار بين الناس ..

لم أقل هذه الكلمة حتى رأيتها تطرق بأطراقه حزينة ساهمة . وظلت على ذلك دقائق كانت بطيئة الخطى ثقيلة الوطأة على قلبي . وبقيت أرقب جوابها كأنى أرقب الحكم بالإعدام فى ساحة القضاء .

وبعد لأى قالت :

أمنحك الجواب الذى تبغى على شرط أن نهض الآن إلى شاطئ البحر لعلى أفرج بأمواجه ضيق صدرى . وهناك تحدث فيما تشاء .

وكنا على شاطئ البحر بعد قليل ، واختارت صخرة ناتئة فى منعطف الشاطئ وفى مكان سحيق لا تدب اليه قدم . ثم وقفت تنظر إلى الأمواج المتدافعة مرة ، وتطيل التحديق فى الأفق البعيد على صفحة الماء مرة أخرى .

وسحرنى هذا الموقف الرائع على الساحل ساعة الغروب ، وكانت الشمس ترسل شعاعها اللهبى وهى تتعلق بالأمواج قبل أن تغيب بين طياتها . وكان الشفق الدامى بعد الغروب يتراءى بعيدا كأنه آثار معركة دامية انتصرت فيها طلائع الليل على طلائع النهار .

فى هذه اللحظات الرهيبة تكلمت الأميرة وعلى شفتيها الفاتنتين ابتسامة باهتة حزينة .

— تريد الآن جوابا حاسما ، أليس كذلك ؟

قلت فى لهفة :

— أجل .

فاجابت فى صوت خافت ونبرات مرتعشة :

— ألا أقص عليك قصة صغيرة قبل هذا الجواب الذى تتلهف عليه .

قلت :

— كل كلمة تخرج من فيك حبيبة إلى نفسى .

فنظرت إلى الأمواج وراحت تقص القصة الصغيرة دون أن تلتفت إلىّ كأنها كانت تحدث بها نفسها فى ساعة نجوى .

فقالت :

فى أرض فضاء بإحدى ضواحى هذا القفر كان بعض الأعراب يضربون خيامهم حيث يجدون المرعى لإبلهم وغنمهم . وبين هذه الخيام المتناثرة فى الرمال قامت خيمة صغيرة أبلتها الرياح والأمطار . وفى هذه الخيمة أقام أعرابى فقير مع ابنته الوحيدة التى فقدت أمها فى طفولتها ، وعاش الاثنان عيش الفاقة والشظف .

وكانت هذه الفتاة مشرقة فاتنة الملامح ، فتطلع إليها أبناء الأعراب كل يبغيها لنفسه زوجة ، وكان أبوها يضن بها عليهم لأنها كانت تعينه على العيش فتقوم على رعى غنماته ، ثم تحمل لبنها لتبيعه فى بيوت الموسرين من سكان الضاحية .

وفى يوم من الأيام مر بخيمتها فتى تلوح عليه آثار النعمة والثراء بما يلبس من ثياب زاهية . ونظرت اليه وكان فى طريقه إلى بيت بعض أصدقائه هناك . وطال ترداده على طريقها فكان يرمقها وترمقه دون أن يكلم أحدهما الآخر .

... ورمدت إحدى عينيها فجلست أمام خيمتها مطرقة تغطى عينيها بمنديلها . ومر بها صاحبنا فوقف عندها وحياها ثم سألها عما أصاب عينها وسألها هل ذهبت لعلاجها فى مستشفى المدينة الرمدى . وأجابته فى ذلة وانكسار بأنها لا تعرف الطريق إلى هذا المستشفى ولا تملك أجرة الترام اليه . وتفرس الفتى فى وجه الفتاة فراعه جمالها الفاتن ، وحلت من قلبه مكانا ساميا . وانصرف على أن يعود من زيارة صديقه ليستأذن أباها فى مصاحبتها إلى طبيب من أصدقائه وليكلفها برعايته إلى أن تشفى ...

وأخذ الفتى إلى الأعرابية الفقيرة حتى تم شفاء عينها وعاد وجهها إلى إشراقه وفتنته

وكانت الفتاة قد أحبت الفتى حبا ملك عليها شعاب قلبها . لكنها لم تجسر على مفاتحته بالحب لشعورها بالمذلة والفقر بالنسبة اليه... لقد كان الفتى أحد طلاب معهد الاسكندرية الدينى ، وكان يرفل بين رفاقه فيما وهبه الله من عز وثراء وجاه .

ومضت أيام وأيام . وعلى حين فجأة اختفت خيمة هذه الفتاة من بين الخيام ، وغابت عن الحى مع أبيها فلم يعرف أحد من شأنهما شيئا . أما سبب اختفائها مع أبيها فذلك لأن أميرا إسبانيا كان يسكن قصرا من قصور هذه الضاحية طلبا للمتعة والراحة ، فتجول بعض الأيام بين هذه الخيام فراعه جمال هذه الفتاة فتحدث الى أبيها وعرض عليه أن يكون أحد حراس قصره وأن تكون ابنته إحدى خادمات القصر ، وقبل الرجل مسرورا ، ودخلت الفتاة القصر على استحياء وأصدر الأمير أمره الى الوصيفات والجوارى أن يقمن باعدادها فى أجمل الثياب وأغلاها لتكون خادمته الخاصة ...

وفى شهور قلائل تحولت الاعرابية الفقيرة الرثة الى فتاة عصرية تتكلم اللغة الاسبانية وتلم بالفرنسية ، وأصبحت بفعل المال وسحره وحظوة الأمير غادة القصر وصاحبة الأمر والنهى فيه . وفى جملة وجيزة : أصابت من نعيم الدنيا كل ما تتمناه فتاة ، ونالت كل شىء وفقدت فى سبيل ذلك أنفس شىء ! ! ! ...

ثم مات أبوها ، واعتزم الأمير على الارتحال — وكان قد مل خدمتها وزهدت نفسه فيها ، فتركها وارتحل بعد أن أغدق عليها مالا وحليا وثيابا .

وفى طوال الأعوام التى قضتها فى كنف الأمير لم تكن نسيت فتاها الذى أحبته وتدلهت فى هواه .

وخرجت الى دنيا اللهو والآثام فأوحى اليها شيطانها أن تلبس الثياب العربية الأنيقه الغالية، وأن ترعم لنفسها أنها أميرة عربية وفدت الى مصر وحيدة تجوب أرجاءها وتشهد آثارها — وتهافت على مجلسها عليه القوم وعظماء الرجال ، ونصبت شباكها لاصطياد أموالهم وهداياهم .

وقضت فى هذه الحال أعواما وأعواما ، ترتحل عن مصر الى عواصم أوروبا تزعم فيها لنفسها ما زعمت فى مصر ، ثم تعود فى بعض فصول السنة زاعمة أن هواء مصر يجتذبها فى كل عام .

وعلمت فى خلال ذلك بالبحث والتقصى أن حبيبها الأول قد أدبرت عنه دنياه بعد أن عاد من منفاه فى مالطه فذهب رونق شبابه وغاضت ابتسامته واضطرب عيشه وصفرت يده واجتواه المجتمع . ثم التقت به على غير ميعاد ... فأعاد بلقائه قديم الذكريات ، وأجج فى نفسها سعير الوجد والهيام . لكنها كانت قد فقدت نفسها الأولى ، وكان هو قد فقد نفسه أيضا فلم يعد يصلح لها ولم تعد تصلح له . ولم يبق إلا أن تعود فتبحث عن مكان خيمتها الأولى لتقضى هناك بقية أيامها فى ثياب رثة بعد أن عافت نفسها دنيا الآثام دانيا تكفر عما اقترفت يداها . وكذلك لم يبق إلا أن يعود صاحبها من حيث أتى ليضرب فى مناكب الأرض طالبا للرزق كالمدلج الحيران فى البيداء أخطأه القمر ... بذلك أنبت " لأميرة العربية" قصتها ، وكنت كلما ذكرت واقعة من وقائعها أنتفض لهول الذكرى الأليمة . لكنها لم تكن ترانى ... فقد كانت تتحدث ووجهها إلى الأمواج ...

رباه ! ! تلك هى " صابحة " أعرابية حى السيوف ! ! وكان الليل قد لف الشاطئ بغياهبه فعدنا واجمين ننشر صفحات الماضى ونطويها دون أن نتكلم .

أما أنا فقد عدت كما قالت أضرب فى بفاج الأرض كالمدلج الحيران ...

وأما هى فقد ارتحلت من الفندق الكبير ثم اختفت فجأة كما اختفت مع أبيها أول مرة لم يعرف أحد من شأنها شيئا .

عبد الله حبيب
رئيس مكتب الصحافة
بوزارة الشؤون الاجتماعية

---

" لا بذكر الفساجر فى العقلاء ، ولا الكذوب فى الأعفاء . ولا الخذول فى الكرماء ، ولا الكفور بشىء من الخير " .

" ابن المقفع "